مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 3 السنة: 2020
ص: 457 - 468 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

المتكلّم في النص التراثي
رسالة الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي أنموذجًا

The Speaker in the Prosaic Text, Case Study: *Letter of Friendship and Friend* by AbouHayan A-ttawhidi

كريم الطيبي *

Karim Taibi

جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان – المغرب.

Université Abdelmalek Essaadi- Titouan/ Morocco

Karimtaibi1988@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/12/07	تاريخ القبول:2020/06/06	تاريخ النشر: 2020/09/15

مُلخّص البحث

تروم هذه الورقة البحثية لَفْتَ النظر إلى مسألة مهمة تتعلق بقراءة النصوص التراثية قراءة مستجدّة تستثمر الأدوات والآليات التي قدّمتها المقاربات الجديدة في مضمار تحليل الخطاب، وذلك من أجل الكشف عن منظومات بنيوية، لم يأبه لها النقد العربي الحديث الذي تعامل مع هذه النصوص معاملة تجزيئية تقتنص ما في حقولها الزاخرة من أبعاد جمالية مختزلة في صور أسلوبية، أو أبعاد معرفية مقتصرة في معلومات ومعارف مبثوثة هنا وهناك، ولا شكّ أن هذه النظرة أساءت إلى النص التراثي؛ لأنها لا تنظر إليه في كليته أي بوصفه خطابا أنتج في سياق محدد، واضطلع بإخراجه متكلم يروم من خلاله التواصل مع المتلقين. انطلاقا من هذا التصور حاولنا افتحاص المتكلم واستراتيجياته الخطابية في النص التراثي العربي وقد اخترنا نص الصداقة والصديق ليكون متنا لهذه الدراسة.

الكلمات المفتاح: صورة، متكلم، نص، تراث، استراتيجية.

Abstract:

This research sheet tends to draw attention to a crucial question concerning classical texts, namely the recourse to new tools offered by new approaches to discourse analysis. The objective is to clarify the structures of these texts that modern Arab criticism has not addressed since they have been treated in a fragmented way. This review was only interested in the stylistic sides of the texts or even in the truncated informational content of these corpora. It goes without saying that this approach was detrimental to the classical text

* كريم الطيبي. karimtaibi1988@gmail.com

because it did not consider it in its entirety, that is to say as a discourse produced in a context determined by a speaker who targets interlocutors. Hence, we have attempted to submit for study the status of the speaker and his discursive strategies in the classical Arabic text. To do this, we have chosen the text "Friendship and Friend / AL-Sadaqah wa-al-Sadiq" as an object of study.

Key words: image, speaker, text, heritage, strategy

مدخل:

لا شك أن انفتاح دارس النص التراثي على بعض المقاربات التحليلية للخطاب كلسانيات التلفظ والتداوليات وبلاغة الحجاج – التي حاولت تجاوز ما اعتور المناهج النقدية من قصور في بلوغ غايات ومقاصد الخطابات،– جدير بأن يكشف آفاقا رحبة مختزنة في هذه النصوص، على نحو ما سيمكّن الدارس من بلوغ مقاصد وغايات تلك النصوص، ذلك أن هذه المقاربات بلورت طُروحاتها ومبادئها بناءً على تجاوز المنزلقات التي وقعت فيها أغلب المناهج النقدية.

وتعد قضية "المتكلم" من المرتكزات المهمة التي أعيد طرحها برؤى جديدة؛ إذ أُعيد الاعتبار لهذا المكوّن الذي يشكل أحد أقطاب الخطاب، وبُعِث من جديد بعد أن قتلتْه التصورات البنيوية والتفكيكية وما تفرّع عنهما؛ إذ عمدت هذه النظريات إلى تقويض"المؤلّف" والاستعاضة عنه بمفاهيم أخرى كـ:"النسق" و"البنية" و"النص"... وغيرها، ويعتبر الناقد الفرنسي رولان بارت أول من أعلن "موت المؤلّف"، وذلك حينما قال:" لقد أصبحنا نعلم أن الكتابة لا يمكن أن تنفتح على المستقبل إلا بقلب الأسطورة التي تدعمها: فميلاد القارئ رهين بموت المؤلّف."† مؤسسا بذلك تصورًا للكتابة يتأسس على الانتقال من سلطة المؤلف إلى سلطة اللغة؛ فاللغة عنده هي:" التي تتكلّم وليس المؤلّف"[1]. بيد أن مقاربات تحليل الخطاب تجاوزت قصور هذا التصور مستثمرة الثالوث الخطابي: المتكلم– الخطاب– المخاطب، في شموليته، وأعادت النظر في قضية المؤلّف، فاعتبرت أن "كل إنتاج خطابي يقتضي وجود متكلم منتج يشارك في عملية التلفظ

† درس السيميولوجيا، رولان بارت، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 1993م، ص: 87. وأُنظر أيضًا:" هسهسة اللغة" ص: 83.

بصورة مباشرة"[2] ولا بد من الوقوف عند هذا المرتكز ودراسة خططه واستراتيجياته بغية سبر أغوار الخطاب وكشف أسراره وإبراز مقاصده. وعلى إثر الاهتمام بالمتكلم في الخطاب انبثق مبحث الذاتية في اللغة، وتم التأكيد على مسألة انغراس الذات المتلفظة في ملفوظاتها، إذ إنّ "كل مقطع خطابي يحوي بطرائق ودرجات مختلفة، بصمة من تلفّظ به." وقد شكل حضور المتكلم مظهرا من مظاهر الحجاج؛ فصورة المتكلم في الخطاب أو الإيطوس عُدّت مقولة حجاجية يتوسّل بها المتلفّظ بوصفها استراتيجية خطابية هدفها التأثير في المتلقي.

انطلاقا من هذه المداخل حاولنا دراسة المتكلم وصور حضوره في رسالة الصداقة والصديق لأبي حيّان التوحيدي، منطلقين من فرضية مؤدّاها أن أبا حيان التّوحيدي بوصفه المتكلم الرئيس قد شيّد صورته داخل المدوّنة اللغوية للرسالة، ومادام أن الناسج يتبدّى في النسيج النّصي، فإن الالتباس بين الذات المتكلمة المرجعية والذات المتكلمة الخطابية أمر متحقق في رسالة الصداقة والصديق، وللوقوف عند مناطق الالتباس لا بد من تتبّع آثار المؤلف في البناء النصي للرسالة، ولا مناص لنا من التأويل ونحن بصدد دراسة صورة المتكلم، إذ إن التأويل "عمل نصي بالأساس يُنجز بحثا عن قيمة تنبثق من تركيب مخصوص للأحداث أو صياغة معيّنة للخطاب، أو أداء نافذ لأعمال مضمّنة في القول متعلّقة بذات ناسجة متعالية هي ذات المؤلف في النص تسعى إلى التأثير في المخاطب على الرّغم ممّا نجده من مفوّضين عنه يتكلّمون باسمه رواة كانوا أو شخصيات قائلة أو فاعلة."[3]

أولا: رسالة الصداقة والصديق وخصوصية البناء

تعد رسالة الصديق والصديق من مؤلفات التوحيدي التي تنماز عن المؤلفات الأخرى بوحدة المحتوى؛ فهي تدور حول موضوع واحد هو الصداقة والصديق.

انشغل أبو حيان بتجميع كل ما له صلة بهذا الموضوع؛ فحشد رسالته مسترفدا من أقوال الفلاسفة والحكماء والشعراء والأدباء حينا، ومغترفا من "أهل الفضل والحكمة، وأصحاب الديانة والمروءة"[4] حينا آخر. وتجدر الإشارة إلى أن تصنيف رسالة الصداقة والصديقة أتى بناءً على طلب من الوزير ابن سعدان الذي بلغ إلى سمعه حديث التوحيدي عن الصداقة والألفة والعشرة، وقد دبّج التوحيدي – المتكلم الرئيس في الرسالة– دواعي التأليف قائلا:" كان سبب إنشاء هذه الرسالة في الصداقة والصديق أني ذكرت شيئا منها لزيد بن رفاعة أبي الخير، فنماه إلى ابن سعدان

الوزير أبي عبد الله سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة، وتدبيره أمره الوزارة، حين كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على إذلالها جارية، فقال لي ابن سعدان: قال لي زيد عنك كذا وكذا، قلت: قد كان ذاك، قال: فدوّن هذا الكلام، وصلْه بصلاته مما يصح عندك لمن تقدّم، فإن حديث الصديق حلو، ووصفَ الصاحب المساعد مطرب، فجمعت ما في هذه الرسالة، وشُغل عن ردّ القول فيها، وأبطأت أنا عن تحريرها إلى أن كان من أمره ما كان."[5] يفصح المتكلم الذي اضطلع بعملية التلفظ عن دواعي تأليف الرسالة، مشيرا إلى "السلطة الخارجية" التي حضّته على هذه العملية، كما أومأ إلى الاستراتيجية التي تأساها وهي "التجميع".

إن تأثيث المقدمة بملابسات تأليف الرسالة، والمنهج المتبع من قبل المؤلِّف، يقدّم انطباعا أوليا لدى القارئ أن المتكلم سينأى بذاته عن الرسالة بخلق مسافة بينه وبين ما ستحتويه المدونة؛ لأن مهمته تقتصر على تجميع ما تفرق، ولملمة ما تشتت من أحاديث في شأن الصديق والصداقة؛ لأن "هذه الطريقة تمنح التوحيدي حيادا في السرد، فالآخرون هم الذين يسردون، أما هو فناقل ومثبت"[6]. وإضافة إلى هذا، يقودنا قول التوحيدي إلى تقبّل الرسالة بمحاسنها ومعايبها، ذلك أن وجوده في رسالته لا يتجاوز كونه جمّاعة يفتّش في ذاكرته عن كلام من تقدّم لتحتشد رسالته، ويتحقق المرام الذي رسمه الوزير ابن سعدان. ولعل هذه الغاية هي التي برّرت الوسيلة التي ارتأى المتكلم نهجها؛ فالرسالة لم تلتئم في منظومة محكمة البناء، ولم تُشيّد الاستدعاءات التي امتاحها ضمن قاعدة موصولة الحلقات، وإنما تكونت في بنية تكوينية مهجّنة قلبا وقالبا؛ فهي عبارة عن "شذرات وأقوال وأشعار وأخبار متفرّقة وقصص قصيرة وكلام نبوّة"[7]، كما أنها "مؤلفة من خطابات متباينة البنية والدلالة"[8]. والمثير أيضا أن هذا التخبّط شابَ أيضا مواقف المتكلم في مدونة الرسالة، إذ تتسم بالازدواجية والتناقض؛ فهو يستفتح بتأسيس خطاب ينفي وجود الصديق، ويستبعد تحقق الصداقة، وفي الوقت نفسه، يقوّض هذا البناء بتأسيس أطروحة مناوئة تنبني على امتداح الصداقة والإشادة بها.

إن هذه البلبلة التي طبعت رسالة الصداقة والصديق، تكشف عن ثنائية ضديدة تعتور ذات المتكلم النّزاعة إلى التنفيس عن همومها وآلامها من جهة، والإذعان لمطلب الوزير ابن سعدان من جهة أخرى، وبناء عليه، جمع بين الموقفين على تباعدهما وتنافرهما، وأبدى تصوره إزاء موضوع الصداقة، وفي الآن نفسه، استجاب لمطلب المتلقي. وقد أشار محقق الرسالة إبراهيم الكيلاني إلى

هذا قائلا:" إن للتوحيدي شخصيتين: ذاتية وموضوعية، عبّر في الأولى عن نوازعه الوجدانية والعاطفية، وعبّر في الثانية عمّا رأى وسمع وشارك به من أحداث عصره ومشاكله، وكان أسلوبه في كلا الحالتين أسلوبا فنيا منمّقا راقيا."[9] على الرغم أن المقصد الذي رسمه الوزير هو صياغة رسالة تجمع ما قيل عن الصداقة والصديق.

يتضح، إذا، أن المتكلم يخاتل القارئ بخطاب مضلّل، لا ينوء بما حوته مدونة رسالته، لأن "الرسالة كانت تتوخى جمعًا يعرض فيه التوحيدي من خلاله آراء لا دخل فيها للذات، فإذا بالذات تنفلت من عقال الحيادية والموضوعية، لتخط خطابا بالغ السرية، خطاب الذات، شجون تكتب بدلا من المعرفة المحايدة التي تنبئ وتدل."[10] ومن ثمّ، يمكن الإقرار بمسألة انغراس المتكلم في ثنايا الممارسات القولية التي صدرت عنه، ومحاولة النّبش عن صورة الذات المطمورة فيها تؤكد انشطار هذه الذات إلى مظهرين وهما: التجلي والتخفي، أما المظهر الأول فإن المتكلم يعمد فيه إلى تجلية ذاته في الملفوظات من خلال نَسْبِ عملية القول إليه، واستعمال ضمائر دالة عليه، بينما يسعى في المظهر الثاني إلى إضمار ذاته والتلفظ بلسان متكلمين آخرين.

ثانيــا: المتكلّــم والتجــلّي

مرّ بنا القول أن رسالة الصداقة والصديق لا تنتظم وفق منهجية مضبوطة؛ فهي تخلو من أي نسق ينظمها، ويغيب عنها التقسيم العلمي الذي يفترض خطاطة واضحة تقوم على التبويب والتقسيم، وباختصار، رسالة التوحيدي هي رسالة جمع فيها مجموعة من الاستشهادات والأقوال التي تحوم في فلك الصداقة. غير أن التأمل في خطاب الرسالة يفضي إلى استشفاف خصائص بنيوية تتعلق بحضور المتكلم وتشييده صورة لذاته من جهة، وصورة للعالم من جهة أخرى.

لقد أعلن المتكلم عن حضوره في ملفوظات الرسالة بشكل صريح، ويبدو هذا في أمارات لغوية ولسانية داخل المدونة مثل:(منِّي- سئلتُ- وصلتُ-سمعتُ-أقول-ذكرتُ-عثرتُ...)، وتتجلى الذات المتكلمة، أيضا، من خلال تقديم موقفها إزاء العالم، وعرض رأيها تجاه موضوع الصداقة، ونتلمّس هذا في الدعاء الذي استفتح به التوحيدي رسالته:" اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا، واستر علينا فقد أعورنا، وارزقنا الألفة التي بها تصلح القلوب، وتنقى الجيوب، حتى نتعايش في هذه الدار مصطلحين على الخير، مؤثرين للتقوى، عاملين شرائط الدين، آخذين بأطراف المروءة، آنفين من ملابسة ما يقدح في ذات البين، متزودين للعاقبة التي لا بدّ من الشخوص إليها،

ولا محيد عن الاطلاع عليها، إنك تؤتي من تشاء ما تشاء."[11] يؤثث هذا الدعاء الرؤية الخاصة بالمتكلم تجاه العالم/المجتمع، فالدعاء يجسد رغبة الداعي في الانتقال من حال الواقع إلى الحال المأمول، وحال الواقع أن المجتمع موبوء ومحتقن بالظواهر الشنيعة، ومفعم بالعلاقات المتوترة المبنية على الصراع والشنآن، أما الحال المأمول فهو تحقق التعايش وسيادة الألفة بين الناس.

يتضح أن المتكلم/التوحيدي يمتلك "تصورا مثاليا للمجتمع، وذلك حتى ينعم بالأمن في الدنيا، وليتزوّد بالطاعات التي تنجيه من عاقبة الحساب في الآخرة."[12] ويتعزّز موقف المتكلم بدعاء آخر للخوارزمي أبي بكر محمد بن العبّاس إستشهد به، يقول فيه:" اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تمتني حتى يبور الجهل كما بار العقل، ويموت النقس كما مات العلم."[13] وقد عقّب التوحيدي على هذا الدعاء بما يؤكد أنه يتماهى مع رؤية الخوارزمي؛ حيث قال:" وأقول: اللهم اسمع واستجب، فقد برح الخفاء، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل، وأشفى الرجاء، والفرج معدوم، وأظن أن الداء في هذا الباب قديم، والبلوى فيه مشهورة، والعجيج منه معتاد."[14]

لقد أطر المتكلم رسالته بالدعاء بوصفه مكونا بنيويا يضطلع بوظيفة التمهيد للموضوع، وواضح أنه سعى إلى تقديم صورة للمجتمع العباسي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، صورة تبرز ارتجاج القيم الأخلاقية، وتأزم الأحوال السياسية، وتردي الأوضاع الاجتماعية، وهو ما أسهم في تأثر العلاقات الإنسانية وتوترها، على نحو ما أسهم في انشغال التوحيدي بموضوع أخلاقي وليد هذا التحول الذي انعكس على العلاقات الاجتماعية وهو الصداقة.

وقد أبدى المتكلم موقفه من الصداقة، على نحو ما أفصح عن رؤيته للمجتمع؛ إذ إنه يطرح تصورا تتنزل فيه الذات المتكلّمة بوضوح، يقول:" وقبل كلّ شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديق، ولا من يتشبّه بالصّديق."[15] يتبدّى أن التوحيدي أدلى بموقفه صراحة؛ فهو ينفي وجود صديق أو من يتشبَّه به، والجدير بالتأمل أنه سارع إلى عرض هذا الرأي قبل أن يتوغّل في موضوعه الذي أنشأ لأجله الرسالة، ويدل على هذا قوله (وقبل كل شيء).

لقد ضخّ المتكلم رأيه في الرسالة مجترحا مسارا مختلفا عمّا رسمه الوزير ابن سعدان، "مسارا مناقضا للخطاطة الأولية الملبية لأمر يريد معرفة الضروري من التجارب والخبرات."[16] يعكس البعد الذاتي الذي يتجلى في ثنايا الرسالة.

وإذا انتقلنا من محاولة إثبات انصهار ذات المتكلم في الخطاب، إلى موقف المتكلم نفسه، فإننا نلفي أن اقتناع التوحيدي بانعدام وجود الصديق تبلور من خلال تجربته المعيشية القاسية؛ فقصته مع البؤس والفقر والفاقة طويلة، الأمر الذي جعله يزهد في الأصدقاء، ويعتنق رؤية متشائمة عن العالم. وقد أشار إلى هذا في قوله:" ومن العجب والبديع أنّا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق، والأسف والحسرة والغيرة والكمد والومد وكأني بغيرك إذا قرأها تقبّضت نفسه عنه، وأمرس نقده عليها، وأنكر عليّ التطويل والتهويل بها. وإنما أشرت بهذا إلى غيرك لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك، وذلك لعلمك بحالي، واطلاعك على دخلتي، واستمراري على هذه الأنفاض والعوز اللذين قد نقضا قوتي، ونكثا مرتي، وأفسدا حياتي، وقرناني بالأسى، وحجباني عن الأسى، لأني فقدت كل مؤنس، وصاحب ومرفق ومشفق."[17] لا شك أن معجم البؤس والشقاء والضيق قد طغى في هذا المقطع الذي يلقي الضياء على جانب من المعاناة التي تكبّدتها الذات المتكلّمة في حياتها جراء الحرمان والفقر. وقد انعكست هذه الحالة المزرية في التكوين الاجتماعي لشخصية التوحيدي؛ فقد تسببت في شعوره بالوحدة والغربة بعد فقدانه للأصدقاء، ونقف على ملفوظ دال يبرز فيه المتكلم حجم الفجيعة، يقول:" والله! لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلّي معي، فإن اتفق فبقّال، أو عصّار، أو ندّاف، أو قصّاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنسا بالوحشة، قانعا بالوحدة، معتادا للصمت، مجتنفا على الحيرة، محتملا الأذى، يائسا من جميع ما ترى، متوقعا لما لا بد من حلوله، فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول، وظل التلبث إلى قلوص."[18]

يعبّر الملفوظ عن ذات متشظية وممزقة، فيها تتكتّل المشاعر المؤلمة، وتزدحم العواطف الموجعة. ومن البدهي أن تتبنى ذات المتكلم موقفا مناوئا للصداقة يشكّل امتدادا لرؤية شاملة للعالم، رؤية بئيسة فقدت الأمل في الناس، ووجدت خلاصها في انعزالها، وراحتها في وحدتها.

يبرز المتكلم في خطاب الرسالة من خلال الإفصاح عن موقفه تجاه قضية الصداقة، مستغلا مساحة الرسالة للتعبير عن انفعالاته المتأججة بالآلام والانكسارات، ومحرّفا المسار الذي تقتضيه غاية المتلقي، وليس مستبعدا أن يكون هذا الرأي قد دبّجه التوحيدي في مسوداته التي كان قد كتب فيها قبل أن يبادره الوزير بطلبه؛ فموضوع الصداقة والصديق من المواضيع التي استرعت

انتباهه، وفي متن الرسالة ما يشير إلى ذلك:" فلمّا كان هذا الوقت وهو رجب سنة أربع مائة عثرت على المسودّة وبيّضتها على نحيلها، فإن راقتك فذلك الذي عزمت بنيّتي وحولي، واستخارتي، وإن تزحلقت عن ذلك فللعذر الذي سحبت ذيله وأرسلت سيله."[19] يتضح من كلام التوحيدي أنه تفطن إلى تزحلقه عن الغرض الأساس الذي تحكّم في إنتاج الرسالة، والذي أفضى إلى الإعراب عن مكنوناته الدفينة، ونوازعه المكبوتة بجلاء وصراحة.

ثالثا: المتكلّم والتخفـــي

أشرنا في التحليل السابق، إلى تجلي ذات المتكلم في خطابها، معلنة –عبر هذه الاستراتيجية– عن مواقفها وقناعاتها دون مواربة، بيد أن التغلغل في الاستراتيجية الخطابية، يجعلنا ندرك مزاوجة المتكلم بين التجلي والتخفي، وانشطار ذاته بين الظهور والاحتجاب، ونتلمّس هذا في إضمار ذاته واستدعاء متكلمين آخرين يتحدثون بلسانه، ويتبنون آراءَه، وهو ما يعني أن المتكلم انتقل من خطة التعبير عن مواقفه إلى خطة إقناع المتلقي بها؛ فـ"كثيرا ما كان يتوارى خلف متناصاته، ويُؤْثر أن يحيلها أبواقا تعبّر عن أديولوجيته، فنلفيه يحشد أقوالا لشخوص لها من القيمة والوزن في المخزون الجمعي ما يؤهّل المتلقي لقبول قولها وموقفها من قضية الصداقة."[20]

لقد طمر التوحيدي ذاته بعد أن أعلن عن موقفه، ليطلق العنان لمخزونه الثقافي وتراكماته المعرفية، التي استغلها في انتقاء ما يعضّد موقفه تجاه الصداقة، وتوجيه دفَّة السرد إلى الوجهة التي تخدم أغراضه.

ومن أمثلة ذلك، احتجاب الذات المتكلمة خلف صوت جميل بن مرة، الذي تبنى موقفا يتناغم مع تصوره، ويتضح هذا في استشهاد التوحيدي بقصّته:" ولذلك قال جميل بن مرّة في الزمان الأول حين كان الدين يعانق بالإخلاص، والمروءة تتهادى بين الناس، وقد لزم قعر البيت، ورفض المجالس، واعتزل الخاصة والعامة، وعوتب في ذلك فقال: لقد صحبتُ الناس أربعين سنة فما رأيتهم غفروا لي ذنبا، ولا ستروا لي عيبًا، ولا حفظوا لي غيبا، ولا أقالوا لي عثرة، ولا رحموا لي عبرة، ولا قبلوا مني عذرة، ولا فكّوني من أسرة، ولا جبروا مني كسرة، ولا بذلوا لي نصرة، ورأيت الشغل بهم تضييعا للحياة، وتباعدا من الله تعالى، وتجرعا للغيظ مع الساعات، وتسليطا للهوى في الهنات بعد الهنات."[21] يعكس هذا الاستدعاء دلالات الشؤم واليأس من الصحبة والصديق، وقد تمخّض هذا الإحساس بعد تجربة راسخة في مخالطة الناس دامت أربعين سنة؛ فبعد هذا الردح

الطويل من الزمن اقتنع ابن مرة أن الانزواء عن الناس هو سبيل النجاة من قلوبهم المفعمة بالحقد والمليئة بالشنآن؛ فهي لا تستر عيبا ولا تقيل عثرة، ولا ترحم عَبرة، ولا تقبل اعتذارا وما دام الحال هذه، فالانشغال بهم تضييع للوقت، وبُعْدٌ عن العبادة، وتجرعٌ للغيظ.

لقد توارى أبو حيان خلف صوت جميل بن مرة، ليتحدّث بلسانه عمّا يجول في نفسه؛ ويعضّد رأيه تجاه الصداقة والصديق، ويمكن أن نتلمّس إشارة بليغة تختزن مقابلة مضمرة استغلها المتكلم لتمرير رأيٍ بطرف خفي، وتتجلى في تمهيده لقصة ابن مرة، حيث قال:" ولذلك قال جميل بن مرة في الزمن الأول حين كان الدين يعانق بالإخلاص، والمروءة تتهادى بين الناس."[22] إن هذا الملفوظ ينطوي على مقابلة مضمرة عقدها المتكلم بين زمانين، ويمكن توضيح هذا في الجدول التالي:

زمان جميل بن مرة	زمان المتكلم/ أبي حيان التوحيدي
– الدين يعانق بالإخلاص. – المروءة تتهادى بين الناس.	– الدين يعانق بالرياء. – الزُّمُورَة[23] تتهادى بين الناس.

إن هذه الإيماءة الخاطفة، تقدّم صورة عن زمن جميل بن مرة، على نحو ما تقدم صورة على زمن أبي حيّان؛ ويتغيى عبرها المتكلم إقناع المتلقي برأيه المتمحور حول انعدام الصداقة، فإذا كان جميل بن مُرة تبنى هذا الموقف في زمن تميز فيه الناس بقيم فاضلة، وخلال حميدة، فمن باب أولى أن نقتنع نحن بهذا الموقف في زمن اختل فيه المجتمع، وتصدّعت قيمه الإنسانية النبيلة.

ويدعّم المتكلم الرئيس/ التوحيدي استراتيجية التّخفي باستدعاء متكلم فرعي هو ابن كعب، من خلال الاستشهاد بقوله:" لا خير في مخالطة الناس، ولا فائدة في القرب منهم، والثقة بهم والاعتماد عليهم."[24] نستشف أن مضمون خطاب ابن كعب، ينسجم مع أطروحة التوحيدي؛ فهو ينفي الصفات الحسنة كالخير والفائدة والثقة عن مصاحبة الناس ومصادقتهم. ويتقوّى هذا الملمح الدلالي بشاهد شعري:" ولذلك قال الأول:

إخاءُ النـاس ممتزج * وأكبر فعلهم سمـجُ
فإن بَدَهتك مقطعةٌ * فما لذنبهم فرجُ

فقوّمهم بهجرهم * فإن لم يُهجروا اعتوجوا
صروف الدهر دانية * تقطّع بينها المهج[25]

تحوي الأبيات الشعرية دعوى واضحة إلى الانصراف عن الناس وهجرهم، لتفادي انحطاط أفعالهم، وسماجة أخلاقهم. وهذا ما يتعالق مع مخططات المتكلم واستراتيجياته. ونقف على نموذج دلالي سيق على لسان متكلم آخر جاء فيه:" وكان العسجدي يقول كثيرا: الصداقة مرفوضة، والحفاظ معدوم، والوفاء اسم لا حقيقة له، والرعاية موقوفة على البذل، والكرم فقد مات، والله يحيي الموتى."[26] لا ينزاح هذا الشاهد عن الدلالات التي تضمنتها الشواهد السابقة؛ إذ إنها تدل على موقف واحد، وهو موقف المتكلم الرئيس/ التوحيدي نفسه.

لقد تخفّت ذات المتكلم وراء هذه المقبوسات، لتعلن على لسانها ما يجول في خاطره، وقد لاحظنا أنه انتقل من التعبير عن رأيه الرافض للصداقة، إلى إقناعنا بتصوره، عبر آلية استدعاء متكلمين آخرين يختلفون في الألقاب والأسماء ويتفقون في المواقف والآراء.

لقد شعر المتكلم بانتشاء وانشراح بعد إفصاحه عن موقفه، وهو ما نفهمه من قوله:" استرسال الكلام في هذا النمط شفاء للصدر، وتخفيف من البرحاء، وانجياب للحرقة، واطراد للغيظ، وبردٌ للغليل، وتعليل للنفس."[27] ويشير هذا الانشراح إلى نجاح التوحيدي في تزحلقه عن مسار الرسالة، ولكن دون الاصطدام مع المتلقي الخاص/ الوزير ابن سعدان، إذ إنه عمد بعد ذلك إلى إيراد حديث الصداقة والصديق والشواهد والأقوال التي تتبيّن أهميتها وقيمتها، مما يعني تأسيس أطروحة موضوعية تناقض أطروحته الذاتية، استجابة لطلب الوزير.

ويمكن القول إن أطروحة أبي حيان التوحيدي القاضية بالانطواء على الذات، وقطع الصلة مع الآخر، تجسد الخلل النفسي الذي يتعشش في ذاته؛ فهذا الموقف غير طبيعي على اعتبار أن الإنسان "بطبيعته كائن اجتماعي، يحتاج للآخر، إلى من يبثُّه أفراحه وأتراحه، يحتاج إلى صديق."[28] ويمكن تفسير هذا التوجه غير الاجتماعي لدى التوحيدي بكونه ردَّ فعل طبيعيا لذات مليئة بالثقوب والانكسارات، وعزيمة مثبطة، وإرادة بئيسة. إن المتكلم في هذه الرسالة يمثل نموذج الإنسان المقهور الذي " يحاول تجنب ما تفرضه عليه الطبيعة من بلاء اعتباطي، ويفرضه عليه المتسلط من قهر متعنت، تأخذه اتجاه الانكفاء على الذات، وهي كأوالية دفاعية تسير في اتجاه

التقوقع والانسحاب، بدل مجابهة التحديات الراهنة والمستقبلية. وتشيع هذه الأوالية كثيرا في ردود فعل الإنسان تجاه مختلف حالات الفشل، الذي يصحبه إحساس داخلي بالعجز وقيلة الحيلة."[29]

خاتمـــة:

لقد حاولت هذه الورقات أن تتابع خطوات الذات المتكلمة في رسالة الصداقة والصديق، وقد استشففنا انشطار هذه الذات إلى منحيين، منحى البروز والتجلي، ومنحى والاحتجاب والتخفي، وتؤكّد هذه الاستراتيجية الخطابية مدى تعايش الذات المرجعية التاريخية مع الذات النصية المؤوّلة. إن رسالة الصداقة والصديق – بوصفها نصا تراثيا عربيا قديما– تمثّل أنموذجا يؤكد أن الذات الناسجة مكوّن جوهري من مكونات النسيج النصّي، فالمتكلم وإن غاب عن العالم المرجعي فإنه حاضر في العالم الخطابي النصي.

هوامش:

[1] هسهسة اللغة، رولان بارت، ترجمة منذر عيّاشي، مركز الإنماء الحضاري– حلب، سنة 1999م، ص: 77.

[2] نقلا عن دراسة:"خطاب الفرد– خطاب الطبقة" لخليفة الميساوي، ضمن كتاب:"قضايا المتكلم في اللغة والخطاب"، ص:58.

[3] محمد بن محمد الخبو، "مسألة المؤلّف في أخبار العشق في قديم أدب العرب"، ضمن كتاب:"المتكلم في السرد العربي القديم"، ص:47

[4] الصداقة والصديقة، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر المعاصر– بيروت ودار الفكر– دمشق، الطبعة الرابعة، سنة 2007م. ص: 29.

[5] الصداقة والصديق، ص: 35.

[6] هيثم سرحان، الأنظمة السيميائية دراسة في السرد العربي القديم، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى سنة 2008م، ص: 280.

[7] نفسه، ص: 280.

[8] محمد بنيس، تمارين الصداقة ومسارات الخطاب لدى أبي حيان التوحيدي، مجلة فصول، ع 4، 1 أكتوبر 1995م، ص:277.

[9] رسالة الصداقة والصديق، ص:15.

[10] محمد بنيس، مقال مذكور، ص: 275.

[11] رسالة الصداقة والصديق، ص: 29.

[12] هيثم سرحان، الأنظمة السيميائية، ص: 275.
[13] رسالة الصداقة والصديق، ص: 30.
[14] نفسه، ص: 30.
[15] نفسه، ص: 36.
[16] محمد بنيس، مقال مذكور، ص: 275.
[17] رسالة الصداقة والصديق، ص: 34.
[18] نفسه، ص: 34.
[19] نفسه، ص:35
[20] أميمة صبحي، حجاجية الخطاب في إبداعات التوحيدي، ص: 220.
[21] رسالة الصداقة والصديق، ص: 36.
[22] رسالة الصداقة والصديق، ص: 36.
[23] "رجل زَمِر: قليل المروءة بين الزَّمارة والزُّمورة أي قليلها" لسان العرب، مادة/ زمر.
[24] رسالة الصداقة والصديق، ص: 36.
[25] نفسه، ص:36.
[26] نفسه، ص: 37.
[27] نفسه، ص: 37.
[28] أميمة صبحي، حجاجية الخطاب في إبداعات التوحيدي، ص: 215.
[29] مصطفى حجازي، سيكولوجية الإنسان المقهور، ص: 101.